

وما أرسلنـــــاك

إلا رحمة للعالمين

الحلقة الأولى

كتبها الشيخ





بسم لله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

آية في كتاب الله تعالى لم تتجاوز حروفها خمسة وعشرين حرفاً تُوقِف المرءَ على الحقيقة الكبرى التي جاءت بها الرسالة المحمدية في رسم بلاغي فريد، ونسق بياني لا نظير له، وبحر من المعاني لا يحاط به، لتكون هذه الأحرف المحدودة والكلمات المعدودة باباً مشرعاً وبرهاناً مقنعاً لمن أراد الولوج من خلاله إلى ذلك الأفق الفسيح والفضاء الوسيع حيث سكنُ القلوب، وسكينةُ النفوس، وانشراح الصدور، واستقرار الفطرة، وتناسق الحياة {إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}الإسراء٩.

فالبشر كلهم يبحثون عن الرحمة ويتلمسون أسبابها التي تضم بين طياتها السكينة، والأمان، والاطمئنان، والاستقرار، والعدل، وصيانة الحقوق، وضربوا من أجل ذلك في كل واد هائمين على وجوههم، فكلما ظفروا بقطعة رحمة –ولو ظنا أو وهما– في تجربة أو عرفٍ أو قانون أو سياسة احتضنوها وفخموها ولاذوا بها وعدّوها رأس النجاة وعنوان الفخر ويتيمة الدهر، وما أن يعيشوا في كنفها الموهوم شيئا من الوقت ويتهيئوا لاستقبال هبات نسيمها حتى تكشف لهم عن حقيقتها ويكتشفوا هم مخبوءها فتلفحهم بجحيمها ويدركوا أن الوهم قد كان غشَّى أبصارهم وغطى قلوبهم فما زالوا في العذاب والضنك قائمين، فتراهم ينقبون عن غيرها وينتقلون إلى سواها راجين أن يسوقهم السبيل المضني إلى مستقر الرحمة وكنف الراحة ومأوى الأمن فمن أراد الله به خيراً أدركها ومن كتبت عليه الشقاوة قضى عمره في الضنك والضيق والعذاب ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون {وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} الشورى٨.

ولا أدل على ذلك في عصرنا الحاضر –(المحتَضر) لا المُتَحَضِّر– من كثرة المنظمات والمؤسسات والهيئات التي تزعم أنها تعنى بحقوق الإنسان، والتي تحاول من خلالها توفير الحد الأدنى من (الرحمة) التي تنتظم بها حياتهم وسط موجات العذاب وخضخضات الزلزلة التي تعصف بهم وتنغص كل لحظة من لحظات حياتهم، وكل شعبة من شعبها.

إن الإنسان بفطرته وصفاته وسماته وتركيبته قد جبله الله خالقه عز وجل على حالات متداخلة جلية وخفية، ومشاعر وأحاسيس متنوعة ومتقلبة، وإدراكات متعددة



ومتفاوتة، ورغبات متداخلة ومتعارضة، ويحتاج في حياته كلها أن يعيش مع كل هذه الأمور في توافق وتناسق يطابق أو يقارب الصورة المثلى التي تستقر معها فطرته وتسكن نفسه ويهدأ فؤاده ويهنأ باله، وتنضبط أفعاله وتتلاءم تصوراته مع الحقائق الكبرى التي غرست في أعماق قلبه مما لا يجد لها مدفعاً ولا منزعاً، وأي اضطراب أو اختلال يحصل في الفطرة أو الصفات أو الأفعال أو التصورات فإنه سيجر على صاحبه من الوبال والنكال والغرق في بحار الأكدار، والبعد عن (الرحمة) بحسب قربه أو بعده من حالة الكمال الإنساني الذي ينبغي لكل عاقل أن يسعى إليه، ذلك الكمال الذي لا يمكن تحصيله بل ولا إدراكه إدراكاً تاماً والتعرف عليه معرفةً وافيةً أصلاً إلا من خلال الوحي المنزل من عند خالق الخلق مالك الملك وهو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} الملك ١٤.

فهناك صورة مثلى وحالة اكتمال –سواء للأفراد أو للمجتمعات– يسعى الجميع لبلوغها والظفر بها ليصلوا عندها إلى المستقر الذي تصبو إليه كل نفسٍ تبعا لما جبلت عليه، فتحظى من خلاله بالسكينة الدائمة، والطمأنينة العميقة، والأمان الكامل، والرحمة الشاملة، والحياة الطيبة، والعيشة الهنية، وما تفاخر المجتمعات –قديما وحديثا– بعضها على بعض إلا بناء على نصيبها مما اقتنصته وأدركته وتوصلت إليه من أسباب الاستقرار، والتوسعة، والتراحم، والتوائم الذي يحصل بين أصحابها والعدل في تحصيل حقوقها، وهذه هي الغايات التي يحاول كل رئيس أو ملك أو أمير مهما بلغ من الطغيان أن يقنع شعبه وأتباعه أنه قائمٌ لتحقيقها، ساعٍ في تحصيلها، داعٍ إلى تكميلها، مجتهد في توصيلها حتى فرعون إمام العتو والظلم والتجبر قال لقومه: {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} غافر ٢٩.

لقد أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم والبشرية آنذاك كأنها في حالة احتضار مما دهاها من أنواع الأمراض المزمنة التي تمكنت من جسدها، وتعفنت بسببها سائر أعضائها، وسرت سموم الفساد في أوصالها، وكادت تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد أن أصبحت لا تتنفس إلا في جو (الجاهلية) الموبوء الخانق، فبلغت بها الأدواء والآلام والضيق مبلغاً لا مزيد عليه، فلما شمرت عن ساقيها وتهيأت للتردي في الهاوية التي لا نهاية لها، ودارت أعينها من هول سكرات الغي والأهواء والخرافة والسخف والشطح التي طوقتها وخنقتها بل وتغلغلت في شرايينها وعروقها – نادى منادي

الفلاح والصلاح والإصلاح وصاح في وجهها صيحة النذير العريان: النجاء النجاء، فأخذ بحُجزِها ليدفعها بقوةٍ ويبعدها عن حافة المهلكة التي أوشكت أن تتهاوى فيها، فأنقذها الله بالرحمة المهداة الذي قال عن نفسه ضارباً المثل لحاله مع المتجاوزين لرحمته، الرادين لدعوته، الصادين (من الصد والصدود) عن سبيله، مع حرصه عليهم، وشفقته بهم، واجتهاده في نصحهم –بأبي هو وأمي– (مثلي كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار، يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيتقحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني، تقحمون فيها) متفق عليه.

ولن تجد لحقبة الجاهلية المظلمة الموبوءة أدق من وصف أحد الذين اكتووا بنارها واصطلوا بجحيمها وعاشوا وعايشوا أجواءها حيناً من الدهر كانت القلوب فيها غلفاً، والنفوس متوحشة، والعقول ضالة تائهةً حتى ذاقوا حلاوة الإيمان وتطهرت قلوبهم ببرده الصافي، وارتشفوا من معينه النقي، فصقلت قلوبهم، وزكيت نفوسهم، ورشدت عقولهم، وتهذبت أخلاقهم، واستقامت حياتهم فعرفوا عندها ما كانوا عليه وما صاروا إليه كما قال جعفر بن أبي طالب وهو واقفٌ بين يدي النجاشي ملك الحبشة: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة...إلخ.

وحريٌّ بحقبة صبغت وصبغ أهلها بهذه الموبقات والفواحش والشرور أن يلتصق بها وصف (الجاهلية) والذي يدل معناه على انقطاع أي أثر للعلمِ في توجيه حياة الناس وضبطها والسمو بها، لا في عقائدهم، ولا عباداتهم، ولا معاملاتهم، ولا أخلاقهم، ولا سلمهم ولا حربهم، وإنما مرد ذلك ومبعثه في الغالب هو (الظن وما تهوى الأنفس) والتواطؤ والتراضي والاستحسان والذي لا يكاد ينفك لحظة عن الأهواء وتأثيراتها وتقديم حظوظ النفوس وميولها ورغباتها والحرص على تلبية ذلك قدر الإمكان ولو كان على حساب اصطلاء المجتمع كله وتفحمه جراء جحيم الأهواء المستعر والمتدافع والذي لا يبقي للمجتمعات رحمةً ولا يذر وقد انتكست الفطر، وتحجرت القلوب، وغطى العقول ران الأعراف والعوائد والمألوف، وجمدها

قفو آثار الآباء والأجداد فلا ترى النجاة إلا في اتباعها وتقليدها ولو كانوا أضل الضلال، وفي أحط الخبال {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} البقرة١٧٠ وأطلق عِنانَ التوحشِ والاعتداءِ والظلمِ الجشعُ والطمعُ والأنانيةُ وحب العلو والحميةُ والعصبية الخرقاء:

وما أنا إلا من غزِيَّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غزِيَّةُ أَرْشُدِ

فالضنك والعذاب والشر الذي كان يعيشه أهل الجاهلية ويتقلبون وسط مرجله لم يكن مرده لخاصية تعلقت بتلك الفترة فلا يتعداها لغيرها ولا يغشى سواها، كما أنه من السخف والاستخفاف أن يجعل عوده لمجرد بدائية أسباب المعايش المادية التي كانت تقوم عليها حياتهم من قبيل إن وسائل تنقلاتهم ونقلهم هي الجمال والبغال والحمير، ومساكنهم الخيام والصوف والكهوف، وأسلحتهم السيوف والرماح والنبل وغير ذلك، فكل هذه وأمثالها إنما تستعمل وتسخر لتسيير الحياة وتيسير أسبابها وتتخذ سبيلاً للوصول إلى المقاصد الكبرى من الحياة، وما بها تُقوَّم القيم، وتصقل المجتمعات، وتبنى الأخلاق والآداب، فصبغة الحقب والأزمان بصبغة الجاهلية أو ما يضادها لا تعتمد على مثل هذه الأسباب العارضة والمتجددة والمتعددة والمتنوعة.

فأنت ترى أن الحقبة الواحدة تتفاوت المجتمعات فيها تفاوتاً كبيراً في هذه الأمور المادية المحضة وتتفاضل أسباب الراحة والرفاهية والتسهيل وتحصيل المتع تفاضلاً كثيراً، ومع ذلك فكل تلك المجتمعات تستحق اسماً ينطبق عليها جميعها هو (الجاهلية) مما يعني أن المرد في وضع أو رفع هذا الاسم ليس مجرد ما حصلته من أسباب الحياة المادية وإنما هو أمرٌ وراء ذلك، وفوق ما هنالك، فقطعاً لم يكن الروم والفرس في هذه الأمور سواء، وبينهم وبين قبائل العرب في ذلك بون شاسع، وهكذا سائر مَن كان في ذلك الزمن، ومع ذلك كله فمجتمعاتهم ودولهم كانت تعيش جاهلية جهلاء، وهمجية خرقاء، وعصبية هوجاء، قوامها الظلم، والطغيان، والتوحش، وقهر الضعفاء، والفساد في الأرض، والانسلاخ من كثير من القيم، وبالجملة لا تكاد تخرج عن نمط حياة الأنعام التي يستحقها كل من بعد عن الدين ونأى بنفسه عن هداه، واتخذ إلهه هواه {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا



وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} الأعراف١٧٩ {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} الفرقان٤٤.

هذا ولا تخرج الجاهلية المعاصرة عن هذا القانون، وليس ثمة ما يستثنيها ويشذ بها عنه، بل لن يكون المرء مبالغاً إن قال إن عصرنا (المحتضر) قد غرق في أعماق بحر الجاهلية المظلم غرقاً لم يسبق إليه سابق، وتفننت في تقنين الانسلاخ من القيم، والتجرد من الرحمة، وركوب أنواع المهلكات، والتوسع في صور الفساد والإفساد، فكل ما ذكره جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الشرور والطوام قد بلغ في هذا العصر ذروته ونال منه النصيب الأوفر وزادوا عليه من مبتكرات الجرائم والعظائم وطرق الإفساد في الأرض ما لم يتخيله الجاهليون الأولون، وأُدخِلت المجتمعات والشعوب في مطحنة الضنك والعذاب والاضطراب فانتكست الفطر وشردت عن أصلها شرودا بعيداً، وضاقت الصدور ضيقاً قاتلاً، وسيطرت أنماط الحياة البهيمية سيطرة مطبقة، وهيمنت الشهوات والأهواء هيمنة تامة، وغابت عنها معاني الرحمة والرأفة والرفق فراحت تتلمسها وتتحسسها هنا وهناك، فلا تجد إلا ناراً تلظى، وجحيما مستعراً، وضيقاً خانقاً قاتلاً، إذ غلبت على الطبائعِ الهمجيةُ والوحشية والسبعية، وتمكنت دوافع الطمع والجشع والأنانية و(المصالح) وصارت هي قواعد وأسس المعاملات والسياسات والحرب والسلم.

ومع ذلك فنرى بعض المبهورين المتهورين يغض الطرف عن كل هذه الآصار والأغلال التي تلفظ معها البشرية أنفاسها ويلتفت إلى تقنيات متقدمة، ووسائل عصرية، ليجعلها معياراً للحكم على هذه المجتمعات المخدَّرة، ويتخذ تقنياته الفاتنة وسيلة يدفع بها في نحر مَن أراد رحمة العالمين وإنقاذهم من الجحيم العصري الملتهب، ويحاول جهده من خلال افتتانه بهذه الوسائل صدَّ كل من يراه يبحث بحثاً صادقاً عن منجاة له ومخرج يجد فيه سكنه وراحته ورحمته ليرده ويرديه في هوة انتكاس الفطرة التي لا مستقَرّ لها ولا سكون إلا في موطنٍ واحدٍ وهو الدين القيم الذي جاء به مَن بعث رحمة للعالمين: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} الروم٣٠ ومن هنا ندرك عظم الجريمة التي يقترفها الصادون عن سبيل الله الذين انطمست عندهم البصائر فلم يعودوا يفرقون بين حاجة فطرهم وحاجة أجسادهم،

فراحوا يبحثون عن راحة أرواحهم واستقرار فطرهم وسكينة قلوبهم في المباني الراقية، والمراكب الفارهة، والتقنيات المتقدمة، فكانوا كحال من يسفك دم قتيله على طبق من ذهب، ولهذا استحق هؤلاء الصادون عن سبيل الله مضاعفة العذاب تبعاً لعظم جريمتهم وقبيح فسادهم {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ}النحل٨٨ قال الإمام ابن كثير رحمه الله: أي: ((عذابا على كفرهم، وعذابًا على صدهم الناس عن اتباع الحق)) تفسير ابن كثير: ج٤ص٥٩٣.

يُتبَع إن شَاءَ الله

مجلة طلائع خراسان - العدد ١٦- محرَّم 1431هـ

منبر التوحيد والجهاد

* * *

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.net
http://www.alsunnah.info
http://www.abu-qatada.com
http://www.mtj.tw

